✝

كنيسة السيدة العذراء

بمحرم بك



السامرية

للقديس يوحنا ذهبى الفم

ٱلْأَصْحَاحُ ٱلرَّابِعُ

١ فَلَمَّا عَلِمَ ٱلرَّبُّ أَنَّ ٱلْفَرِّيسِيِّينَ سَمِعُوا أَنَّ يَسُوعَ يُصَيِّرُ وَيُعَمِّدُ تَلاَمِيذَ أَكْثَرَ مِنْ يُوحَنَّا.
٢ مَعَ أَنَّ يَسُوعَ نَفْسَهُ لَمْ يَكُنْ يُعَمِّدُ بَلْ تَلاَمِيذُهُ. ٣ تَرَكَ ٱلْيَهُودِيَّةَ وَمَضَى أَيْضاً إِلَى ٱلْجَلِيلِ.
٤ وَكَانَ لاَ بُدَّ لَهُ أَنْ يَجْتَازَ ٱلسَّامِرَةَ. ٥ فَأَتَى إِلَى مَدِينَةٍ مِنَ ٱلسَّامِرَةِ يُقَالُ لَهَا سُوخَارُ بِقُرْبِ
ٱلضَّيْعَةِ ٱلَّتِي وَهَبَهَا يَعْقُوبُ لِيُوسُفَ ٱبْنِهِ. ٦ وَكَانَتْ هُنَاكَ بِئْرُ يَعْقُوبَ. فَإِذْ كَانَ يَسُوعُ قَدْ
تَعِبَ مِنَ ٱلسَّفَرِ جَلَسَ هٰكَذَا عَلَى ٱلْبِئْرِ. وَكَانَ نَحْوَ ٱلسَّاعَةِ ٱلسَّادِسَةِ. ٧ فَجَاءَتِ ٱمْرَأَةٌ مِنَ
ٱلسَّامِرَةِ لِتَسْتَقِيَ مَاءً. فَقَالَ لَهَا يَسُوعُ أَعْطِينِي لِأَشْرَبَ. ٨ لِأَنَّ تَلاَمِيذَهُ كَانُوا قَدْ مَضَوْا إِلَى
ٱلْمَدِينَةِ لِيَبْتَاعُوا طَعَاماً. ٩ فَقَالَتْ لَهُ ٱلْمَرْأَةُ ٱلسَّامِرِيَّةُ كَيْفَ تَطْلُبُ مِنِّي لِتَشْرَبَ وَأَنْتَ
يَهُودِيٌّ وَأَنَا ٱمْرَأَةٌ سَامِرِيَّةٌ. لِأَنَّ ٱلْيَهُودَ لاَ يُعَامِلُونَ ٱلسَّامِرِيِّينَ. ١٠ أَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهَا
لَوْ كُنْتِ تَعْلَمِينَ عَطِيَّةَ ٱللهِ وَمَنْ هُوَ ٱلَّذِي يَقُولُ لَكِ أَعْطِينِي لِأَشْرَبَ لَطَلَبْتِ أَنْتِ مِنْهُ
فَأَعْطَاكِ مَاءً حَيّاً. ١١ قَالَتْ لَهُ ٱلْمَرْأَةُ يَا سَيِّدُ لاَ دَلْوَ لَكَ وَٱلْبِئْرُ عَمِيقَةٌ. فَمِنْ أَيْنَ لَكَ ٱلْمَاءُ
ٱلْحَيُّ. ١٢ أَلَعَلَّكَ أَعْظَمُ مِنْ أَبِينَا يَعْقُوبَ ٱلَّذِي أَعْطَانَا ٱلْبِئْرَ وَشَرِبَ مِنْهَا هُوَ وَبَنُوهُ وَمَوَاشِيهِ.
١٣ أَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهَا. كُلُّ مَنْ يَشْرَبُ مِنْ هٰذَا ٱلْمَاءِ يَعْطَشُ أَيْضاً. ١٤ وَلٰكِنْ مَنْ يَشْرَبُ
مِنَ ٱلْمَاءِ ٱلَّذِي أُعْطِيهِ أَنَا فَلَنْ يَعْطَشَ إِلَى ٱلْأَبَدِ. بَلِ ٱلْمَاءُ ٱلَّذِي أُعْطِيهِ يَصِيرُ فِيهِ يَنْبُوعَ
مَاءٍ يَنْبَعُ إِلَى حَيَوٰةٍ أَبَدِيَّةٍ. ١٥ قَالَتْ لَهُ ٱلْمَرْأَةُ يَا سَيِّدُ أَعْطِنِي هٰذَا ٱلْمَاءَ لِكَيْ لاَ أَعْطَشَ وَلاَ آتِيَ
إِلَى هُنَا لِأَسْتَقِيَ. ١٦ قَالَ لَهَا يَسُوعُ ٱذْهَبِي وَٱدْعِي زَوْجَكِ وَتَعَالَيْ إِلَى هٰهُنَا. ١٧ أَجَابَتِ ٱلْمَرْأَةُ
وَقَالَتْ لَيْسَ لِي زَوْجٌ. قَالَ لَهَا يَسُوعُ حَسَناً قُلْتِ لَيْسَ لِي زَوْجٌ. ١٨ لِأَنَّهُ كَانَ لَكِ خَمْسَةُ
أَزْوَاجٍ وَٱلَّذِي لَكِ ٱلْآنَ لَيْسَ هُوَ زَوْجَكِ. هٰذَا قُلْتِ بِٱلصِّدْقِ. ١٩ قَالَتْ لَهُ ٱلْمَرْأَةُ يَا سَيِّدُ
أَرَى أَنَّكَ نَبِيٌّ. ٢٠ آبَاؤُنَا سَجَدُوا فِي هٰذَا ٱلْجَبَلِ وَأَنْتُمْ تَقُولُونَ إِنَّ فِي أُورُشَلِيمَ ٱلْمَوْضِعَ ٱلَّذِي
يَنْبَغِي أَنْ يُسْجَدَ فِيهِ. ٢١ قَالَ لَهَا يَسُوعُ يَا ٱمْرَأَةُ صَدِّقِينِي إِنَّهُ تَأْتِي سَاعَةٌ لاَ فِي هٰذَا ٱلْجَبَلِ وَلاَ فِي
أُورُشَلِيمَ تَسْجُدُونَ لِلْآبِ. ٢٢ أَنْتُمْ تَسْجُدُونَ لِمَا لَسْتُمْ تَعْلَمُونَ. أَمَّا نَحْنُ فَنَسْجُدُ لِمَا نَعْلَمُ. لِأَنَّ
ٱلْخَلاَصَ هُوَ مِنَ ٱلْيَهُودِ. ٢٣ وَلٰكِنْ تَأْتِي سَاعَةٌ وَهِيَ ٱلْآنَ حِينَ ٱلسَّاجِدُونَ ٱلْحَقِيقِيُّونَ يَسْجُدُونَ

لِلآبِ بِالرُّوحِ وَالْحَقِّ. لأَنَّ الآبَ طَالِبٌ مِثْلَ هؤُلاَءِ السَّاجِدِينَ لَهُ. ٢٤ اَللهُ رُوحٌ. وَالَّذِينَ
يَسْجُدُونَ لَهُ فَبِالرُّوحِ وَالْحَقِّ يَنْبَغِي أَنْ يَسْجُدُوا. ٢٥ قَالَتْ لَهُ الْمَرْأَةُ أَنَا أَعْلَمُ أَنَّ مَسِيَّا الَّذِي
يُقَالُ لَهُ الْمَسِيحُ يَأْتِي. فَمَتَى جَاءَ ذَاكَ يُخْبِرُنَا بِكُلِّ شَيْءٍ. ٢٦ قَالَ لَهَا يَسُوعُ أَنَا الَّذِي
أُكَلِّمُكِ هُوَ

٢٧ وَعِنْدَ ذلِكَ جَاءَ تَلاَمِيذُهُ وَكَانُوا يَتَعَجَّبُونَ أَنَّهُ يَتَكَلَّمُ مَعَ امْرَأَةٍ. وَلكِنْ لَمْ يَقُلْ أَحَدٌ
مَاذَا تَطْلُبُ أَوْ لِمَاذَا تَتَكَلَّمُ مَعَهَا. ٢٨ فَتَرَكَتِ الْمَرْأَةُ جَرَّتَهَا وَمَضَتْ إِلَى الْمَدِينَةِ وَقَالَتْ
لِلنَّاسِ ٢٩ هَلُمُّوا انْظُرُوا إِنْسَانًا قَالَ لِي كُلَّ مَا فَعَلْتُ. أَلَعَلَّ هذَا هُوَ الْمَسِيحُ. ٣٠ فَخَرَجُوا
مِنَ الْمَدِينَةِ وَأَتَوْا إِلَيْهِ

٣١ وَفِي أَثْنَاءِ ذلِكَ سَأَلَهُ تَلاَمِيذُهُ قَائِلِينَ يَا مُعَلِّمُ كُلْ. ٣٢ فَقَالَ لَهُمْ أَنَا لِي طَعَامٌ
لآكُلَ لَسْتُمْ تَعْرِفُونَهُ أَنْتُمْ. ٣٣ فَقَالَ التَّلاَمِيذُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ أَلَعَلَّ أَحَدًا أَتَاهُ بِشَيْءٍ لِيَأْكُلَ.
٣٤ قَالَ لَهُمْ يَسُوعُ طَعَامِي أَنْ أَعْمَلَ مَشِيئَةَ الَّذِي أَرْسَلَنِي وَأُتَمِّمَ عَمَلَهُ. ٣٥ أَمَا تَقُولُونَ إِنَّهُ
يَكُونُ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ ثُمَّ يَأْتِي الْحَصَادُ. هَا أَنَا أَقُولُ لَكُمُ ارْفَعُوا أَعْيُنَكُمْ وَانْظُرُوا الْحُقُولَ إِنَّهَا
قَدِ ابْيَضَّتْ لِلْحَصَادِ. ٣٦ وَالْحَاصِدُ يَأْخُذُ أُجْرَةً وَيَجْمَعُ ثَمَرًا لِلْحَيَاةِ الأَبَدِيَّةِ لِكَيْ يَفْرَحَ الزَّارِعُ
وَالْحَاصِدُ مَعًا. ٣٧ لأَنَّهُ فِي هذَا يَصْدُقُ الْقَوْلُ إِنَّ وَاحِدًا يَزْرَعُ وَآخَرَ يَحْصُدُ. ٣٨ أَنَا أَرْسَلْتُكُمْ
لِتَحْصُدُوا مَا لَمْ تَتْعَبُوا فِيهِ. آخَرُونَ تَعِبُوا وَأَنْتُمْ قَدْ دَخَلْتُمْ عَلَى تَعَبِهِمْ

٣٩ فَآمَنَ بِهِ مِنْ تِلْكَ الْمَدِينَةِ كَثِيرُونَ مِنَ السَّامِرِيِّينَ بِسَبَبِ كَلاَمِ الْمَرْأَةِ الَّتِي كَانَتْ
تَشْهَدُ أَنَّهُ قَالَ لِي كُلَّ مَا فَعَلْتُ. ٤٠ فَلَمَّا جَاءَ إِلَيْهِ السَّامِرِيُّونَ سَأَلُوهُ أَنْ يَمْكُثَ عِنْدَهُمْ.
فَمَكَثَ هُنَاكَ يَوْمَيْنِ. ٤١ فَآمَنَ بِهِ أَكْثَرُ جِدًّا بِسَبَبِ كَلاَمِهِ. ٤٢ وَقَالُوا لِلْمَرْأَةِ إِنَّنَا لَسْنَا
بَعْدُ بِسَبَبِ كَلاَمِكِ نُؤْمِنُ. لأَنَّنَا نَحْنُ قَدْ سَمِعْنَا وَنَعْلَمُ أَنَّ هذَا هُوَ بِالْحَقِيقَةِ الْمَسِيحُ مُخَلِّصُ
الْعَالَمِ

(يو ٤ : ١ – ٤٢)

مقدمة

رتبت الكنيسة إنجيل الأحد الرابع من الصوم الكبير أن تقرأ فصل السامرية، وهو حادثة لقاء المسيح مع إمرأة سامرية خرجت تملأ جرتها بالماء من بئر يعقوب بالقرب من السامرة، وقد دهشت المرأة السامرية حينما طلب منها السيد المسيح أن يشرب لأنها تعلم ما يكنه اليهود للسامريين من كراهية، سببها أن أسرحدون ملك أشور حينما هاجم السامرة سنة ٦٧٨ ق.م. أتى بقوم وثنيين من بابل وأسكنهم فى أرض السامرة (٢مل ١٧ : ٢٤، عز ٤ : ٤)، فاختلطوا بمن تبقى من سكان الأرض من الأسباط العشرة الإسرائيليين، وتكون منهم الشعب السامرى والتى كانت ديانته مزيجا من الوثنية وديانة الإسرائيليين، لذلك كانت هناك عداوة بين اليهود الذين يسكنون فى أرض اليهودية وأهل السامرة (المرشد الجغرافى التاريخى للعهد القديم). لذلك تعجبت المرأة السامرية حينما تحدث معها المسيح وهو يهودى وهى إمرأة سامرية، لأنها لم تدرك أن الذى تتحدث معه هو مخلص العالم، والذى أعدَّ هذا اللقاء وفيه يُعلن محبته للخطاة، فيسوع يسير فى حر النهار لأنها كانت الساعة الثانية عشرة ظهراً، ويسير مسافة طويلة ويجلس متعباً ينتظر حضور المرأة عند البئر، ومن هى هذه المرأة؟! إنها إمرأة غريبة عن رعوية إسرائيل، ومنغمسة فى الخطية، لقد سبقها يسوع إلى اللقاء ليخلصها، وهى جاءت إلى بئر يعقوب فاكتشفت الذى وهب البئر ليعقوب، جاءت عطشى إلى ماء البئر الذى لا يروى فإذ بها تستقى من ينبوع الماء الحى، جاءت تحمل هموم وأحزان وثقل خطاياها، وانطلقت فرحة وكارزة فقد تركت عند البئر ثقل خطاياها، وتركت جرتها شاهدة على اللقاء.

ما أعظم هذا اللقاء، لقد جاءت تنحنى كل يوم على حافة البئر وإذ بها أمام مخلص العالم تسجد له بالروح والحق.

لقد عادت إلى أهل السامرة تدعوهم أن يلتقوا هم أيضاً مع المسيح، أرادت أن يختبروا بأنفسهم ما تذوقته، فهى تدعوهم «ذوقوا وأنظروا ما أطيب الرب» (مز ٣٤ : ٨)، لقد نالت التوبة وغفران خطاياها، والإرتواء حتى الشبع، وفرح لا ينطق به ومجيد (١ بط ١ :٨).

أما بالنسبة للمخلص فقد كان هذا اللقاء هو خبز طعامه فقد قال لتلاميذه : «أنا لى طعام لآكل لستم تعرفونه أنتم» (يو ٤ : ٣٢)، نحن جياع إلى يسوع خبز الحياة، وعطاش إلى ينبوع الماء الحى، وهو في جوع إلى خلاصنا، إنها دعوة للعطاش والجياع إلى يسوع المخلص والفادى المحب.

وفى هذا الكتاب شرح لفصل إنجيل السامرية للقديس يوحنا ذهبى الفحم

Nicene and Post-Nicene Fathers of the Christian Church.
edited by Philip Shaff. D. D, LID. Vol. xxxi - by St. Chrysostom
Homilies on the Gospel of St. John. pp. 106 - 123.

نسأل الله أن يجعله نافعاً لنفوسنا فى هذا الصوم الأربعينى المقدس. آمين.

القس

مكسيموس وصفى

«فلما علم الرب أن الفريسيين سمعوا أن يسوع يصيّر ويعمّد تلاميذ أكثر من يوحنا. مع أن يسوع نفسه لم يكن يعمد بل تلاميذه. ترك اليهودية ومضى أيضاً إلى الجليل.» (١ـ٣).

لماذا ترك اليهودية ومضى إلى الجليل ؟!

إن يسوع فى الحقيقة لم يكن يعمد، ولكن الذين حملوا الأخبار أرادوا أن يثيروا حسد السامعين. فلماذا إذن مضى هو ؟ إنه لم يمض بسبب الخوف، ولكن لكى يبعد أذاهم ويقلل من حسدهم. ولقد كان حقاً قادراً أن يبعدهم عنه عندما جاءوا ضده، ولكنه لم يفعل هذا دائماً حتى لا ينكروا التدبير الإلهى لتجسده. لأنه لو كان يهرب فى كل مرة يمسكونه فيها، لأثار ذلك شك الكثيرين. لذلك، فى غالب الأمر، كان يرتب الأمور لكى تمضى بمثل طريقة الإنسان. ولما كان يريد أن يفهموا أنه هو الإله، وفى كونه إلهاً أخذ جسداً، لذلك، وحتى بعد قيامته، قال لتلاميذه: «... جسونى وانظروا فإن الروح ليس له لحم وعظام كما ترون لى.» (لو ٢٤ : ٣٩). ولذلك أيضاً وبخ بطرس عندما قال: «حاشاك يارب. لا يكون لك هذا.» (مت ١٦ : ٢٢). إلى هذا الحد كان هذا الأمر موضع اهتمام منه.

ولأن هذا لم يكن بالشيء الهين بالنسبة لعقيدة الكنيسة، فهو النقطة الأساسية فى الخلاص المصنوع لأجلنا، الذى بواسطته تم كل شيء وتحقق له النجاح. وهكذا انفكت رباطات الموت، وأبعدت الخطية، وتلاشت اللعنة، وربوات البركات صارت فى حياتنا. لذلك، فإنه أراد أن

نؤمن بتدبيره الإلهى، الذى هو أساس وينبوع لخيرات لا تحصى لنا.

وبينما كان يفعل هذا بطبيعته البشرية، لم يسمح لألوهيته أن تحتجب. ولذلك فإنه بعد رحيله، عاد واستخدم نفس اللغة كما سبق. إذ أنه لم يذهب إلى الجليل هكذا بلا غاية، وإنما ليعمل أعمالاً عظيمة بين السامريين. ولم تجرى هذه الأمور ببساطة، وإنما صارت بحكمته، حتى لا يترك لليهود فرصة أى ادعاء، حتى ولو بعذر مخزٍ لهم. وإلى ذلك أشار يوحنا البشير عندما قال:

«وكان لابد له أن يجتاز السامرة.» (٤)

قال هذا ليوضح أن يسوع فى أثناء رحلته كان له أن يقوم بهذا العمل. وهذا هو ما فعله الرسل أيضاً. فعندما كانوا يضطهدون من اليهود، كانوا يأتون إلى الأمم مثلما فعل السيد المسيح عندما رفضه اليهود وذهب إلى السامريين. وقد فعل نفس الشيء فى قصة المرأة السورية الفينيقية. حدث هذا لئلا يبقى لليهود أى دفاع عن أنفسهم، وحتى لا يمكنهم أن يقولوا إنه تركنا وذهب إلى غير المختونين. وهكذا جاهر الرسل وقالوا لليهود: «.. كان يجب أن تكلّموا أنتم أولاً بكلمة الله ولكن إذ دفعتموها عنكم وحكمتم أنكم غير مستحقين للحياة الأبدية هوذا نتوجه إلى الأمم.» (أع ١٣ : ٤٦). ومرة أخرى قال الرب يسوع بنفسه: «.... لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة.» (مت ١٥ : ٢٦). لكن لأنهم طردوه خارجاً، فقد فتحوا الباب للأمم. ومع ذلك لم يذهب خصيصاً للأمم، وإنما جاء ذلك فى عبوره وأثناء ذهابه إلى الجليل.

فأتى إلى مدينة من السامرة يقال لها سوخار بقرب الضيعة التي وهبها يعقوب ليوسف ابنه. وكانت هناك بئر يعقوب....» (٥ - ٦)

أصل السامرة ومنشأ السامريين:

لماذا حدد يوحنا الإنجيلي المكان؟ لأنك حينما تسمع المرأة تقول إن أبانا يعقوب أعطانا هذا البئر، فلن تجد هذا الكلام غريباً. لأن هذا المكان هو الذي جرت فيه تلك المذبحة الرهيبة عندما غضب لاوى وشمعون بسبب أختهما دينة. (تك ٣٤ : ١ - ٣١). وقد يكون جديراً بالذكر الإشارة إلى أى أصول تكوّن منها السامريون، حيث أن البلد كلها تدعى السامرة. فمنذ متى أتخذوا هذا الاسم إذن؟ إن الجبل كان يدعى سومر من أجل مالكه. «واشترى جبل السامرة من شامر بوزنتين من الفضة وبنى على الجبل ودعا اسم المدينة التي بناها باسم شامر صاحب الجبل السامرة.» (١ مل ١٦ : ٢٤).

وأيضاً قال إشعياء النبى: «ورأس أفرايم السامرة..» (إش ٧ : ٩). ولكن السكان دعوا (اسرائيليين) وليس (سامريين). ومع مرور الوقت، أخطأوا إلى الله. «فى أيام فَقَح ملك إسرائيل جاء تغلث فلاسر ملك أشور وأخذ عيون وآبل بيت معكة ويانوح وقادش وحاصور وجلعاد والجليل وكل أرض نفتالى وسباهم إلى أشور. وفتن هوشع بن أيلة على فَقَح بن رمليا وضربه فقتله وملك عوضاً عنه..» (٢ مل١٥ : ٢٩، ٣٠). «وصعد عليه شلمنأسر ملك أشور فصار له هوشع عبداً ودفع له جزية.» (٢ مل ١٧ : ٣)، وأخذ مدناً أخرى وأخضعها للجزية.

في البداية كان هوشع خاضعاً مذعناً. ولكنه ثار على قواعد الأشوريين، ووضع تحالفاً مع المصريين. «ووجد ملك أشور في هوشع خيانة. لأنه أرسل رسلاً إلى سوا ملك مصر ولم يؤد جزية إلى ملك أشور حسب كل سنة فقبض عليه ملك أشور وأوثقه في السجن.» (٢ مل ١٧ : ٤). فلما علم ملك أشور بالخيانة، شك في الاسرائيليين، وأقام حرباً ضدهم وحطم مدنهم، ولم يسمح للشعب بالبقاء هناك لشكه في أنهم قد يقومون بثورة. لذا أخذ ملك أشور السامرة وسبى بني إسرائيل إلى أشور، وأسكنهم مدن مادي ومدن أخرى. وأتى ملك أشور بقوم من بابل ومن مدن أخرى متفرقة، وأسكنهم السامرة عوضاً عن بني إسرائيل، حتى يضمن سيطرته المستقبلة بما أن قومه سوف يشغلون هذا المكان.

وبعد ذلك، أراد الرب أن يبين أنه لم يترك اليهود بسبب ضعف، ولكن بسبب خطاياهم. فأرسل السباع على الغرباء وكانت تقتل منهم. وأُعلِمَ الملك بهذا الأمر، فأمر بإحضار واحد من الكهنة ليعلمهم وصايا الله. ورغم ذلك لم يكفوا كلية عن عقوقهم. ولكن مع مرور الوقت، تركوا أوثانهم وعبدوا الرب الإله. وعندما كانت الأحوال بهذا الشكل، عاد اليهود وحملوا بداخلهم شعوراً بالغيرة نحو هؤلاء القوم ناظرين اليهم كغرباء وكأعداء، وأطلقوا عليهم (السامريين) على اسم الجبل. ولهذا السبب أيضاً لم تكن المنافسة بينهم قليلة. ولم يستعمل السامريون كل الكتب المقدسة، بل أخذوا كتب موسى فقط، أما كتب بقية الأنبياء فلم يهتموا اهتماماً كبيراً بها. ومع ذلك كانوا يتوقون لأن يزجوا بأنفسهم

فى الجمع اليهودى النبيل، وكانوا يفتخرون وينسبون أنفسهم لابراهيم، ودعوه من أجدادهم لكونه من اليهودية، ويعقوب أيضاً دعوه أباهم لأنه من نسل إبراهيم. ولكن اليهود كرهوهم ونبذوهم مثلهم مثل باقى الأمم. ولذا وبخوا السيد المسيح قائلين: «... ألسنا نقول حسناً إنك سامرى وبك شيطان.» (يو ٨ : ٤٨). ولذلك وفى مثل الرجل المسافر الذى نزل من أورشليم إلى أريحا وهاجمه اللصوص، جعل السيد المسيح الإنسان الذى أشفق عليه سامرياً (لو ١٠ : ٣٣)، ذلك السامرى الذى كان واحداً من الذين يصفهم اليهود بالحقارة والوضاعة. وفى معجزة شفاء العشرة البرص، دعا واحداً منهم (غريب الجنس) أى سامرياً بهذا المفهوم (لو١٧ : ١١ - ١٩). وقد أعطى السيد المسيح وصيته إلى تلاميذه قائلاً: «... إلى طريق أمم لا تمضوا وإلى مدينة للسامريين لا تدخلوا.» (مت ١٠ : ٥).

لم يكن وصف الإنجيلى للمكان ليذكرنا بيعقوب فقط، ولكن ليرينا أن رفض اليهود للسامريين حدث منذ وقت بعيد. لأنه فى وقت أجدادهم كان اليهود يملكون الأرض وليس السامريون. وكانت الممتلكات التى لأجدادهم، وبالتالى لهم، قد فقدوها بسبب كسلهم وخطاياهم. فالنفع من الأجداد الممتازين يتضاءل جداً إن لم يكن أبناؤهم مثلهم. وأكثر من هذا، أن الغرباء عندما مروا بتجربة السباع، عادوا لتوهم إلى العبادة الصحيحة التى لليهود، بينما اليهود أنفسهم، بعدما كابدوا هذه الضربات، لم يعودوا إلى صوابهم.

إلى هذا المكان أتى السيد المسيح الآن، تاركاً للأبد حياة سهلة

ومريحة، ومظهراً حياة مليئة بالمشقة والتعب فى الخدمة. لم يركب دابة لتحمله إلى هناك، بل سار كثيراً على قدميه، لدرجة التعب والإرهاق من رحلته هذه.

وهذه كانت تعاليمه الدائمة، أن الإنسان يجب أن يعمل لنفسه، وأن يذهب بلا مزود، ولا يحمل معه احتياجات كثيرة. وكم كان يرغب أن نبتعد عن الزوادات، حتى أنه نصح الكثيرين بأن يبتعدوا حتى عن الأشياء الضرورية، حيث قال: «.. للثعالب أوجرة ولطيور السماء أوكار. وأما ابن الإنسان فليس له أين يسند رأسه.» (مت ٨ : ٢٠). لذا كان يقضى معظم وقته فى الجبال والصحارى، ليس بالنهار فقط، ولكن بالليل أيضاً. وهذا ما صرح به داوود عندما قال: «من النهر يشرب فى الطريق..» (مز ١١٠ : ٧). مبيناً طريقته الزاهدة فى الحياة. وهذا ما أظهره أيضاً الإنجيلى فى هذا الجزء.

«.. فإذ كان يسوع قد تعب من السفر جلس هكذا على البئر. وكان نحو الساعة السادسة. فجاءت امرأة من السامرة لتستقى ماءً. فقال لها يسوع أعطينى لأشرب. لأن تلاميذه كانوا قد مضوا إلى المدينة ليبتاعوا طعاماً.» (٦ - ٨)

إذاً فقد علمنا مقدار عمله فى السفر، وعدم اهتمامه بالطعام، وكيفية تعامله معه كشىء قليل الأهمية. وكذلك تعلم منه تلاميذه نفس المبادىء وأن يسلكوا بنفس الترتيب هم أنفسهم، حتى أنهم لم يأخذوا معهم زاداً للطريق. وقد أوضح ذلك القديس متى الإنجيلى قائلاً

إنه لما كلمهم يسوع عن خمير الفريسيين، ظنوا أنه قال ذلك بسبب أنهم لم يأخذوا خبزاً (مت ١٦ : ٦ ، ٧) ، وأوضح ذلك أيضاً عندما قال: «....فجاع تلاميذه وابتدأوا يقطفون سنابل ويأكلون.» (مت ١٢ : ١) ، وكذلك عندما قال عن يسوع عندما كان راجعاً إلى المدينة وجاع: «فنظر شجرة تين على الطريق وجاء إليها...» (مت ٢١ : ١٩) . قيل هذا لنتعلم بكل هذه الآيات أن نهمل شهوة الطعام، وألا نظن أن خدمتها شيء مهم جداً، ولنلاحظ أنهم في هذا المكان لم يحضروا طعاماً معهم لكونهم غير مهتمين بذلك منذ بداية النهار، وابتدأوا في شراء الطعام في الوقت الذي كان بقية الناس يتناولون فيه طعامهم. ليس مثلنا، نحن الذين في اللحظة التي ننهض فيها من الفراش، نهتم بذلك قبل أي شيء آخر. فنجهز طعام الافطار معطين كل اهتمامنا وكل الجدية لهذه الأمور. ثم نكرس أنفسنا بعد ذلك لأمور أخرى، مفضلين الأشياء الوقتية على الروحية، ومعتبرين أن هذه الأمور ضرورية، بينما علينا أن نعتبرها ذات أهمية أقل. ولهذا فكل شيء يكون في ارتباك وفوضى. فيجب علينا، على العكس تماماً، أن نعطي الاهتمام الأكير للروحيات، وبعد الانتهاء منها نبدأ في الأمور الأخرى.

هنا لا يظهر نشاط يسوع وطريقته العملية فقط، وإنما تحرره من الكبرياء أيضاً، ليس لكونه متعباً ولا لجلوسه هكذا على جانب الطريق فحسب، ولكن أيضاً بتركه بمفرده وتلاميذه بعيدين عنه، بينما كان في مقدوره، إذا أراد، ألا يرسلهم جميعاً، أو عندما سمح بذهابهم جميعاً، أن يكون له رسل آخرون. ولكنه لم يرد ذلك لكي يعطي

تلاميذه درساً بأن يدوسوا الكبرياء تحت أقدامهم.

وقد يقول قائل: «أى عجب فى هذا ؟ لقد كانوا معتدلين فى رغباتهم، فإنهم كانوا مجرد صيادين وصانعى خيام !!» نعم!! لقد كانوا صيادين وصانعى خيام، ولكنهم فى لحظة صعدوا إلى علو السماء، وأصبحوا مكرمين أكثر من كل ملوك الأرض، حيث كانوا مستحقين أن يصبحوا تلاميذ مصاحبين لرب الكون، وليتبعوه، هو الذى يراه الكل برهبة ورعدة. واعرفوا أيضاً أن أولئك الرجال، وخاصة الذين هم من أصل متواضع، عندما يحصلون على أى تميز، يكون من السهل اندفاعهم إلى الحماقة، لأنهم يجهلون تماماً كيف يحتملون هذا الإكرام العظيم والمفاجىء. فلذلك علمهم السيد المسيح أن يكونوا دائماً معتدلين، وألا يطلبوا من أحد أبداً أن يقوم بخدمتهم، حافظاً إياهم فى التواضع.

«فإذ كان يسوع قد تعب من السفر جلس هكذا على البئر». هكذا قال الإنجيلى. أترى جلسته هذه كانت بسبب تعبه؟ بسبب الحر؟ بسبب انتظاره لتلاميذه؟ إنه حقاً كان يعلم بما سوف يحدث مع السامريين. وبالرغم من أنه لم يأت أساساً من أجل ذلك، إلا أنه كان لزاماً عليه ألا يرفض المرأة السامرية التى أتت إليه، عندما أظهرت مثل هذه الرغبة فى التعلم. إن اليهود، الذين كان آتياً اليهم، رفضوه. بينما الأمم، ومع أنه كان متجهاً اتجاهاً آخر، دعوه اليهم. لقد حسد اليهود من آمن به، وكانوا ثائرين على من وقروه وعبدوه. إذاً ماذا؟ هل كان عليه أن يغفل خلاص الكثيرين، وأن يبعد عنه مثل هذه الغيرة النبيلة؟ لم يكن هذا

ليتفق أو يليق مع حبه المملوء رحمة. ولذلك فقد رتب كل الأمور بالحكمة التى له. والحكمة صارت هو نفسه.

لقد جلس ليريح جسده وليبرده بالينبوع، فقد كان النهار قد انتصف حيث «كان نحو الساعة السادسة»، كما قال الإنجيلى. لقد «جلس هكذا» ..... ماذا تعنى كلمة (هكذا)؟ ليس على عرش، ولا على وسادة، ولكن ببساطة، هكذا وكما هو، على الأرض.

«فجاءت امرأة من السامرة لتستقى ماءً.» لاحظ كيف يشير الإنجيلى إلى سبب مجيئها، لكى تسكت بكل الطرق مقاومة اليهود، وحتى لا يقول أحد منهم إن يسوع يناقض كلامه، حيث أمر تلاميذه ألا يدخلوا مدينة للسامريين، «.... إلى طريق أمم لا تمضوا وإلى مدينة للسامرين لا تدخلوا» (مت ١٠ : ٥)، ثم يتحدث مع سامرية!! ولذلك قال الإنجيلى: «لأن تلاميذه كانوا قد مضوا إلى المدينة ليبتاعوا طعاماً.»، ذاكراً الأسباب التى دفعت يسوع للحديث مع السامرية.

فبماذا أجابت المرأة عندما سمعت سؤاله: «أعطينى لأشرب.» لقد جعلت، بكل حكمة، حديث الرب يسوع معها فرصة مناسبة للسؤال.

«فقالت له المرأة السامرية كيف تطلب منى لتشرب وأنت يهودى وأنا امرأة سامرية. لأن اليهود لا يعاملون السامريين.» (٩)

كيف افترضت أنه يهودى؟ ربما من ملبسه، أو من لغته أو لهجته. ولاحظ كيف كانت المرأة حذرة، فلو كان هناك حاجة للحذر، فيسوع هو الذى كان فى حاجة إليه وليس هى. كانت حذرة حيث أنها لم تقل

إن السامريين لا يعاملون اليهود، بل قالت إن اليهود لا يعاملون السامريين. ومع ذلك فبالرغم من أنها هى نفسها لا لوم عليها، بافتراضها أن شخصاً آخر هو الذى يقع فى الخطأ، فلم يهدأ لها بال، بل صححت، حسب اعتقادها، ما حدث بطريقة لا تتفق مع العادات والتقاليد.

ربما يتساءل أحدكم كيف يطلب منها يسوع أن يشرب، بينما التقاليد لا تسمح بذلك. فإذا كانت الإجابة أن السبب هو معرفته المسبقة بأنها لن تعطيه ماءً، فلهذا السبب ذاته ما كان ينبغى أن يطلب منها. فماذا يمكننا أن نقول؟ إن يسوع رفض مثل هذه التقاليد والإجراءات، التى لم تكن تمثل بالنسبة له شيئاً ذا بال. لأنه وهو الذى شجع الآخرين على تركها، كان أحرى به أن يتركها هو نفسه. فهو الذى قال: «ليس ما يدخل الفم ينجس الإنسان. بل ما يخرج من الفم هذا ينجس الإنسان.» (مت ١٥ : ١١). وفى حديثه مع المرأة لم يكن هناك أدنى إدانة لليهود، لأنه دوماً كان يجذبهم نحوه سواء بالكلمات أو بالأفعال، ولكنهم لم يفهموا، بينما أسرت هذه المرأة بمطلب بسيط منه، لأنه حتى ذلك الوقت لم يكن بعد قد بدأ الكرازة للتوبة والخلاص، ولكنه فى نفس الوقت، إذا جاء أحد إليه، لم يمنعه. ولذلك قال أيضاً لتلاميذه: «إلى مدينة للسامريين لا تدخلوا.» ولم يقل لهم: «وإذا جاءوا إليكم ارفضوهم» لأن هذا لا يتفق مع رحمته ومحبته. ولذلك....

«أجاب يسوع وقال لها لو كنت تعلمين عطية الله ومن هو الذى يقول لك أعطينى لأشرب لطلبتِ أنتِ منه فأعطاك ماءً حياً.» (١٠)

لقد أظهر الرب أولاً أن هذه المرأة مستحقة لأن تسمع منه، لا أن يتغافل عنها. ثم بعد ذلك كشف لها عن ذاته، لأنها بمجرد أن عرفت من هو، للحال إستمعت له وانجذبت اليه. الأمر الذى لم يحدث من اليهود، لأنهم عندما عرفوا، لم يسألوه شيئاً، ولم يرغبوا فى معرفة أى أمور نافعة منه، بل أهانوه وأخرجوه خارجاً. أما المرأة فعندما استمعت إلى تلك الكلمات، فانظروا كيف أجابت برقة ولطف.......

«قالت له المرأة يا سيد لا دلو لك والبئر عميقة. فمن أين لك الماء الحى.» (١١)

كان يسوع قد رفعها وانتشلها من آرائها الهابطة، ومن ظنها بأنه إنسان عادى. لأنها ليس بدون سبب دعته هنا (يا سيد)، بل معطية إياه كرامة عالية. فإن قولها بهذه الكلمات لكى تكرمه وتمجده، واضح وجلى مما قيل بعد ذلك، حيث أنها لم تضحك أو تهزأ منه، وإنما شكّت لبعض الوقت فقط. ولا تتعجبوا لأنها لم تدرك الأمر كله فوراً، فإن نيقوديموس لم يفعل أيضاً. فماذا قال؟ «... قال له كيف يمكن أن يكون هذا.» (يو ٣ : ٩). وأيضاً «قال له نيقوديوس كيف يمكن الإنسان أن يولد وهو شيخ. ألعله يقدر أن يدخل بطن أمه ثانية ويولد.» (يو ٣ : ٤). أما هذه المرأة، فبأكثر توقير قالت للسيد المسيح: «يا سيد لا دلو لك والبئر عميقة. فمن أين لك الماء الحى.» لقد قال السيد المسيح شيئاً، وتخيلت هى شيئاً آخر، ولم تر شيئاً أبعد من الكلمات، وبالتالى لم تكن قادرة على أن يكون لها أى فكر سامٍ. ولعلها، لو كانت قد تهورت فى الكلام، لقالت: «إذا كان لديك هذا الماء الحى، ما كان ينبغى أن تطلبه منى، بل

بالأحرى كنت تمد نفسك به، ما أنت الا إنسان متكبر.» لكنها لم تقل شيئاً من هذا القبيل، بل أجابت برقة فائقة، سواء في بداية الحديث أو بعد ذلك. ففي البداية قالت: «كيف تطلب منى لتشرب وأنت يهودى»؟ ولم تقل، وكأنها تتكلم مع غريب أو عدو: «من المستبعد عليّ أن أعطيك وأنت خصم وغريب عن وطننا.» ثم بعد ذلك، عندما سمعته يقول كلمات عظيمة، الأمر الذى غالباً ما يضايق الأعداء، فإنها لم تهزأ به أو تسخر منه. فماذا قالت؟

«ألعلك أعظم من أبينا يعقوب الذى أعطانا البئر وشرب منها هو وبنوه ومواشيه.» (١٢)

أنظروا كيف أنها تزج بنفسها في الجمع النبيل لليهود. لأن ما قالته يشبه إلى حد ما قولها: «لقد استعمل يعقوبَ هذا الماء، ولم يكن لديه أفضل منه ليعطيه لنا.» وهذا الذى قالته يظهر أنها، من الإجابة الأولى للسيد المسيح، قد تصورت فكراً عظيماً سامياً، لأنها بكلماتها: «شرب منها هو وبنوه ومواشيه»، لا تدل إلا على شيء واحد ألا وهو أنه كان لديها تصور عن ماء أفضل، ولكنها لم تجده أو تعرفه بوضوح. إن معنى كلماتها كالآتى: «إنك لا تستطيع أن تزعم أن أبانا يعقوب أعطانا هذه البئر، بينما استعمل هو نفسه بئراً آخر. لأنه هو وبنوه شربوا من هذه البئر. وهذا لم يكن ليحدث إذا كان لديهم بئر آخر أفضل منه. والآن ليس في مقدورك أن تعطيني من ماء هذه البئر، ولابمقدورك أن يكون لديك بئر آخر أفضل منه، إلا إذا كنت تعترف بأنك أعظم من أبينا يعقوب. فمن أين لك إذاً ذلك الماء الذى وعدتنى أن تعطيني إياه؟

لم يتحدث اليهود مع يسوع بهذا اللطف، ومع ذلك فقد كلمهم عن نفس الموضوع، مشيراً إلى ذلك الماء الحي، ولكنهم لم يستفيدوا منه. وحتى عندما أشار إلى إبراهيم، حاولوا أن يرموه بالحجارة. هذا هو ما لم تفعله هذه المرأة في اقترابها إليه. بل بلطف شديد، وكان الوقت منتصف النهار، والحرارة على أشدها، وبصبر كبير استمعت وقالت كل شيء، ولم تفكر كثيراً فيما عسى أن يقوله اليهود. ولم تقل: «إن هذا الرفيق غير عاقل حيث ألزمني إلى جواره وبجانب هذا الينبوع والبئر، ولم يعطني شيئاً سوى كلمات كبيرة.» لا، لم تقل هذا، بل إنها تحملت ودأبت حتى وجدت ما كانت تبحث عنه.

والآن، إذا كانت امرأة سامرية شغوفة جداً لكي تتعلم شيئاً نافعاً، وإذا كانت قد لازمت السيد المسيح، ولم تكن تعرفه بعد، فما هو عذرنا نحن الذين نعرفه، ولسنا بجانب بئر، ولا في مكان صحراوي، ولا في وقت الظهيرة وتحت أشعة شمس محرقة، ولكننا في وقت صباح، وتحت سقف مثل هذا، نتمتع بالظل والراحة، ولا نستطيع أن نتحمل سماع أى شيء يقال، بل نكون متضجرين في سأم. تلك المرأة لم تكن كذلك، بل إنها انشغلت وامتلأت بكلمات الرب يسوع إلى درجة أنها حتى دعت الآخرين أيضاً ليسمعوه. أما اليهود، فعلى النقيض، امتنعوا عن دعوة الآخرين، وليس هذا فحسب، بل منعوا وضايقوا الذين حاولوا المجيء إليه، قائلين: «ألعل أحداً من الرؤساء أو من الفريسيين آمن به. ولكن هذا الشعب الذى لا يفهم الناموس هو ملعون.» (يو ٧ : ٤٨، ٤٩) . فلنقلد هذه المرأة التى من السامرة، ولنمكث ونشترك مع المسيح،

لأنه حتى الآن جالس فى وسطنا، يتكلم معنا بالأنبياء والتلاميذ، فلنسمع ونطيع.

إلى متى سنعيش بلا فائدة ولاجدوى؟ لأننا إن لم نفعل ما يسر الرب، فكأننا نعيش بلا فائدة. وليس هذا فحسب، بل نضر أنفسنا أيضاً، لأننا عندما نقضى الوقت الممنوح لنا فى أغراض غير نافعة، فسنرحل عن هذه الدنيا لنلقى أشد العقاب، بسبب هذا التفريط الغير معقول. إذ أنه لا يمكن أن يحدث أن إنساناً تلقى مالاً ليتاجر فيه، ثم بدده، سيجد بين يديه المال الذى يرده لمن وثق فيه وأودع لديه هذا المال. ولا يمكن لأناس مثلنا قضوا أوقاتهم بلا نفع ولا فائدة، أن يفلتوا من العقاب. فليس لهذا خلقنا الرب وأوجدنا فى هذه الحياة، ونفخ فينا روحاً، لكى ننتفع بهذه الحياة الحاضرة فقط، بل لكى نعمل كل أعمالنا ناظرين إلى الحياة الآتية.

إن الأمور اللاعقلانية فقط هى التى تناسب الحياة الحاضرة. ولكننا نملك روحاً خالدة غير مائتة، حتى أنه يمكننا أن نسلك كل السبل لكى نعد أنفسنا لتلك الحياة الأخرى. فإذا تساءل أحد عن نفع الأحصنة والحمير والثيران، والحيوانات الأخرى مثلها، فسنخبره أن نفعها يقتصر على أمور الحياة الحاضرة، ولكن هذا لا يمكن أن ينطبق علينا. فإن أحسن حالاتنا ستكون بعد رحيلنا من هذه الحياة وما يتبع ذلك. ويجب علينا أن نفعل كل ما من شأنه أن يجعلنا نضىء هناك، حتى يمكننا أن نكون فى صحبة زمرة المرنمين من الملائكة، ونقف على الدوام أمام الملك فى الأجيال الأبدية. ولذلك فإن الروح خالدة، والجسم أيضاً

سيكون خالداً، حتى أنه يمكننا أن نتمتع ببركات لانهاية لها. أما إذا قُدمت إليك الأمور السماوية ومع ذلك تظل ملتصقاً بالأمور الأرضية، فأى إهانة تقدم إلى من وهبك هذه العطية. فعندما قدم إليك أموراً عليا، لم تكترث لها، ولم تعمل لها حساباً، بل اخترت الدنيا. ولذلك، فعندما استخففت به، فإنه يهددك بالجحيم، عساك أن تتعلم عندئذ، كم من البركات قد حرمت نفسك منها.

لقد وهبنا الرب ألا يقع أحد فى هذا العقاب، ولكن هذا عندما نعمل كل ما يسر المسيح، حيث يمكننا أن نقتنى بركات أبدية بالنعمة والمحبة والرحمة التى لربنا يسوع المسيح، الذى له المجد مع الآب والروح القدس، الآن وكل أوان والى الأبد. آمين.

«أجاب يسوع وقال لها. كل من يشرب من هذا الماء يعطش أيضاً. ولكن من يشرب من الماء الذى أعطيه أنا فلن يعطش إلى الأبد. بل الماء الذى أعطيه يصير فيه ينبوع ماءٍ ينبع إلى حياة أبدية.» (١٣ - ١٤)

يسمى الكتاب المقدس نعمة الروح القدس (بالنار) أحياناً، و(بالماء) أحياناً أخرى، مظهراً أن هذه الأسماء ليست تصويرية لمعناها الحرفى، وإنما لعملها، وذلك لأن الروح القدس بكونه غير مرئى وبسيط، فليس من الممكن أن يكون مصنوعاً من مواد مختلفة. وعن التسمية (بالنار) يصرح يوحنا المعمدان فيقول: «.... هو سيعمدكم بالروح القدس ونار» (مت ٣ : ١١). أما عن التسمية الأخرى (بالماء)، فيقول السيد المسيح: «من آمن بى كما قال الكتاب تجرى من بطنه أنهار ماء حى.» (يو ٧ :

٣٨) «قال هذا عن الروح الذى كان المؤمنون به مزمعين أن يقبلوه...» (يو ٧ : ٣٩) . وعندما كان يتحدث مع المرأة السامرية أيضاً سمى الروح القدس (بالماء) حيث قال: «من يشرب من الماء الذى أعطيه أنا فلن يعطش إلى الأبد.» وقد سمى الروح القدس (ناراً) ليشير إلى خاصية النعمة المنشطة والمدفئة، وقدرتها على تحطيم الخطايا. أما التسمية (بالماء) ، فليوضح قوة التطهير التى تحدث به، ومدى التنشيط الكبير للعقول التى تقبله. وهذا سبب وجيه، حيث أنه يجعل النفس المرحبة بقبوله، مثل حديقة كثيفة بكل أنواع الأشجار المثمرة والمزهرة دوماً، لا تشعر أبداً، لا بالكآبة ولا بمكائد الشيطان، وقادرة على أن تطفىء سهام الشرير الملتهبة.

لاحظوا، أرجوكم، حكمة الرب يسوع، وكيف قاد المرأة وسما بفكرها إلى أعلى. فلم يبدأ معها بقوله: «لو كنتِ تعلمين عطية الله ومن هو الذى يقول لكِ أعطينى لأشرب..» ، ولكنه قال ذلك بعدما أعطاها الفرصة لكى تدعوه (يهودياً) ، ثم تجاوز عن فعلها هذا ورفض الاتهام قائلاً: «لو كنت تعلمين عطية الله ومن هو الذى يقول لكِ أعطينى لأشرب لطلبت أَنت منه...» . فبعد أن أجبرها، بوعوده العظيمة، على أن تتذكر أباها يعقوب، عندئذ سمح لها أن ترى وتفكر بوضوح. وحينئذ، عندما اعترضت قائلة: «ألعلك أعظم من أبينا يعقوب..» ؟ لم يقل لها: «نعم أنا أعظم» ، (لأن ذلك كان سيبدو كبرياءً منه، بينما الدليل لم يظهر بعد) ، ولكن ما قاله كان يوضح هذا. لأنه لم يقل ببساطة: «سوف أعطيكِ الماء» ، ولكن بعدما أبعد موضوع الماء الذى

أعطاه يعقوب جانباً، تحدث عن الماء الذى يعطيه هو، راغباً فى أن يظهر من طبيعة الأشياء التى تمنح، مدى عظم الفرق بين شخصيتى الواهبين لهذه الأشياء، وعظم مكانته أكثر من يعقوب. فقال لها ما معناه: «إذا كنت تحبين أباك يعقوب لأنه أعطاك هذا الماء، فماذا عساكِ تقولين إذا أعطيتك أنا ماءً أفضل بكثير من هذا الماء؟ لقد اعترفتِ بنفسكِ فى البداية أننى أعظم من أبيكِ يعقوب، وذلك بجدالك معى، وبسؤالكِ لى: ألعلك أعظم من أبينا يعقوب، حتى أنك وعدتنى بأن تعطينى ماءً أفضل؟ فإذا أخذتِ وقبلتِ هذا الماء، فهذا بالتأكيد اعتراف منك بأننى أعظم من أبيك يعقوب.» هل ترى مدى سلامة حكم المرأة، حيث كانت تبنى قراراتها على الحقائق، وذلك عن كل من السيد المسيح ويعقوب أيضاً؟

لم يفعل اليهود ذلك، حتى عندما رأوه يطرد الشياطين. ولم يعتبروه أعظم من يعقوب، بل قالوا عنه: به شيطان. أما المرأة فقد ذهبت بأفكارها حيثما أراد لها المسيح. ومن التوضيحات التى أظهرها بأعماله آمنت به، لأنه بهذه الأعمال أيضاً أوضح ذاته وقال: «إن كنت لست أعمل أعمال أبى فلا تؤمنوا بى. ولكن إن كنت أعمل فإن لم تؤمنوا بى فآمنوا بالأعمال...» (يو ١٠ : ٣٧، ٣٨). وهكذا رفع المرأة إلى الايمان.

عندما سمع السيد المسيح السؤال: «ألعلك أعظم من أبينا يعقوب...»؟ ترك الحديث عن يعقوب جانباً، وتحدث عن الماء قائلاً: «كل من يشرب من هذا الماء يعطش أيضاً»، وجعل المقارنة ليست بالانتقاص من قدر الشيء، بل بإظهار امتياز الشيء الآخر. فالسيد المسيح

لم يقل إن هذا الماء عدمٌ» ، ولم يقل إنه سفلى ، ولم يقل إنه جدير بالإزدراء». بل قال ما تشهد به الطبيعة أيضاً: « كل من يشرب من هذا الماء يعطش أيضاً. ولكن من يشرب من الماء الذى أعطيه أنا فلن يعطش إلى الأبد.»

لقد سمعت المرأة قبلاً عن «الماء الحى» (الآية ١٠). ولكنها لم تعرف بعد معناه. لقد ظنت أن هذا الماء سمى ماءً حياً لكونه دائماً طوال السنة ، يفيض دوماً بلا انقطاع من ينابيع لا تتوقف. هذا ما اعتقدته عن الماء الحى. لذلك يشرح لها السيد المسيح ، بأكثر توضيح ، وبالمقارنة بماء البئر ، كيف يتفوق الماء الآخر (الحى) الذى يعطيه هو ، على هذا الماء. فماذا قال؟ «كل من يشرب من هذا الماء يعطش أيضاً. ولكن من يشرب من الماء الذى أعطيه أنا فلن يعطش إلى الأبد.» هذا الكلام ، وخاصة الكلام الذى قيل بعد ذلك ، يظهر امتياز الماء الحى عن الماء المادى الذى ليس له مثل هذه الصفات. وما الذى قاله بعد ذلك؟ لقد قال: «بل الماء الذى أعطيه يصير فيه ينبوع ماء ينبع إلى حياة أبدية.» فحيث أن من لديه ينبوع بداخله لا يمكن أن ينال منه العطش أبداً ، فبالمثل لا يعطش أبداً من ينال هذا الماء الحى.

لقد آمنت المرأة فى الحال ، مظهرة نفسها بأكثر حكمة مما كانت لنيقوديموس. وليس أكثر حكمة فحسب ، بل أيضاً أكثر إنسانية. لأنه (كمعلم للناموس) عندما سمع آلاف المرات مثل هذا الكلام ، لم يدعُ الآخرين ليسمعوا ، ولا هو نفسه تكلم بصراحة. أما المرأة فقد أظهرت أعمالاً رسولية ، مبشرة بالإنجيل للجميع ، وداعية إياهم إلى السيد المسيح ،

جاذبةً مدينة بأكملها إليه. ولكن نيقوديموس عندما سمع قال: «كيف يكون هذا؟» ولما أوضح له السيد المسيح بمثال واضح وهو مثال الريح، لم يفهم المعنى أو لم تصله الكلمة بوضوح. لم تكن المرأة كذلك. ففى البداية تشككت، وبعد ذلك استوعبت الكلمة بشكل مؤكد. لقد أسرعت مباشرة إلى اعتناق الكلمة، لأنه عندما قال لها السيد المسيح: «الماء الذى أعطيه يصير فيه ينبوع ماء ينبع إلى حياة أبدية.» ففى الحال...

«قالت له المرأة يا سيد أعطنى هذا الماء لكى لا أعطش ولا آتى إلى هنا لأستقى.» (١٥)

هل ترون كيف ارتفعت قليلاً قليلاً إلى الإيمان بالتعاليم السامية؟ لقد ظنت فى البداية أنه يهودى ما، يتعدى على القانون والعادات. فلما رفض هو هذا الإتهام، سمعت منه بعد ذلك عن «الماء الحى»، وظنت أنه يتكلم عن ماء مادى. ثم عرفت منه أن الكلمات روحية وليست مادية، فآمنت بأن الماء يمكن أن يزيل الشعور بالعطش، ولكنها لم تفهم فى الحال ماعساه أن يكون هذا الماء. فظلت متشككة تعتقد أنه ماء فوق مستوى المادة، ولكنها كانت غير واثقة إلى حين. فلم يكن أحد قد أعلمها بدقة عنه. ولكن بعد ذلك أصبح لها بصيرة أوضح، ولكن ليس إلى الحد الكافى لكى تفهم الموضوع كله. (لأنها قالت: «أعطنى هذا الماء لكى لا أعطش ولا آتى إلى هنا لأستقى»)، فللوقت، فضلت يسوع عن يعقوب، لأن يسوع إذا أعطاها هذا الماء، فليست بحاجة بعد إلى ماء البئر. أتنظرون الآن كيف كرمته ووضعته فى مكانة أعلى مما

ليعقوب؟ إنه عمل النفس الحاكمة بالعدل. لقد أظهرت عظمة التقدير التى تحملها ليعقوب، ورأت الآن من هو أعظم منه. ومع ذلك، لم تتراجع عن اعتقادها. إذاً فإن المرأة لم تكن ذات طبع سهل الانقياد. (لم تتقبل الكلام بعدم اهتمام أو بغير اكترات، وكيف يكون ذلك وهى تستفسر بمثل هذه الدقة الشديدة؟)، ولم تكن عاصية ولا مثيرة للجدل أو الخلاف، وذلك أظهرته باستفسارها بتوسل والتماس.

لقد قال السيد المسيح لليهود، ذات مرة: «.... أنا هو خبز الحياة. من يقبل إلىّ فلا يجوع ومن يؤمن بى فلا يعطش أبداً.» (يو ٦ : ٣٥)، ولكنهم لم يؤمنوا، بل وهاجموه أيضاً. لم يكن للمرأة مثل هذه المشاعر، ولكنها بقيت وتوسلت. لقد قال لليهود: «من يؤمن بى فلا يعطش أبداً.»، ونفس الكلام قاله للمرأة ولكن بأكثر عمومية: «من يشرب من الماء الذى أعطيه أنا فلن يعطش إلى الأبد.» لأن الوعد يرمز إلى أمور روحية وأشياء غير منظورة، فبينما هو يسمو بعقلها بوعوده، كان يستعمل تعبيرات مرتبطة بالحواس، لأنها كانت ما زالت غير قادرة بعد على فهم المعانى الحقيقية للأمور الروحية. إذ أنه لو قال لها: «إذا آمنت بى فلن تعطشى إلى الأبد»، لما استطاعت أن تفهم كلامه، فهى لا تدرك من هو الذى يتكلم معها، وما هو نوع العطش الذى يتكلم عنه. ولكنه مع اليهود لم يفعل ذلك. لأنهم رأوا آيات وعلامات كثيرة. أما المرأة فلم تر أى آية، بل سمعت هذا الكلام أولاً. ولهذا السبب أظهر يسوع، بعد ذلك، قوته بالتنبؤ، ليس بطريقة مباشرة، وإنما...

«قال لها يسوع اذهبى وادعى زوجك وتعالى إلى

ههنا. أجابت المرأة وقالت ليس لى زوج. قال لها يسوع حسناً قلتِ ليس لى زوج. لأنه كان لكِ خمسة أزواج والذى لكِ الآن ليس هو زوجك. هذا قلتِ بالصدق. قالت له المرأة ياسيد أرى أنك نبى.» (١٦ - ١٩)

يا لها من حكمة عظيمة تلك التى لهذه المرأة ! فباتضاع وبخضوع كبيرين قبلت منه التوبيخ! وقد يقول أحدكم: كيف لا؟ فقولوا لى لماذا يجب عليها أن تتقبل التوبيخ ؟ ألم يوبخ السيد المسيح اليهود أيضاً، وبأكثر من هذا؟ (لأن الأمر لا يتساوى: عندما تنكشف أفكار القلب الخفية، وعندما ينكشف شيء صنع فى الخفاء. فالأولى معروفة لله وحده، ولا يعرفها أحد سوى الذى يقتنى هذه الأفكار فى قلبه. أما الثانى فكل المشاركين فيه يعرفون) . ولكنهم، وبالرغم من ذلك، عندما وبخهم، لم يتحملوا هذا التوبيخ بصبر. فعندما قال لهم: «.... لماذا تطلبون أن تقتلونى» (يو ٧ : ١٩) ، فإنهم لم يتعجبوا فحسب، مثلما فعلت المرأة، وإنما سخروا منه وأهانوه، على الرغم من رؤيتهم لمعجزات أخرى، فى حين أن المرأة لم تسمع سوى هذا الحديث، لم يتعجبوا فحسب، وإنما أيضاً شتموه قائلين: «... بك شيطان. من يطلب أن يقتلك.» (يو ٧ : ٢٠) . أما المرأة، فليس فقط أنها لم تهينه، ولكنها أعجبت واندهشت منه وافترضت أنه نبى. ومع ذلك، وفى الحقيقة، فإن هذا التوبيخ أثر فى المرأة بأكثر مما أثر توبيخ الآخرين. لأن الخطأ كان خطؤها هى وحدها، أما أخطاؤهم، فقد كانت عامة. ونحن لا نتأثر بالأشياء العامة قدر تأثرنا

بالأشياء الخاصة. وبالإضافة إلى هذا، كان اليهود يعتقدون أنهم سيكسبون شيئاً عظيماً إذا استطاعوا أن يقتلوا المسيح له المجد. ولكن هذا الذى فعلته المرأة كان معروفاً للجميع أنه شر. ومع ذلك لم تكن غاضبة وإنما مندهشة ومتعجلة. والمسيح فعل نفس الشيء مع نثنائيل. فلم يتقدم بالنبوءة فى البداية، ولا هو قال: «لقد رأيتك تحت التينة»، ولكن عندما سأله نثنائيل: «منذ متى وأنت تعرفنى»؟ حينئذ تقدم المسيح بهذه النبوءة. ذلك لأنه أراد أن يأخذ بدايات آياته ونبوءاته من الأشخاص أنفسهم الذين اقتربوا منه، حتى يكونوا أكثر ارتباطاً بما يعمل، وحتى يبعد عن نفسه شبهة الكبرياء. وهذا هو ما فعله هنا أيضاً مع المرأة. فإذا كان قد وبخها فى البداية قائلاً: «ليس لكِ زوج»، فكان سيبدو ذلك تحاملاً بأكثر من اللازم. ولكن أن يأخذ منها هى سبباً للكلام، ثم يظهر بعد ذلك كل الأمور الخافية، فهذا يبدو معقولاً، ويلين استعداد المستمع.

وقد يسأل سائل: «ما علاقة قوله (اذهبى وادعى زوجك) بالموضوع»؟ إن الحديث كان يدور حول عطية ونعمة تفوق الطبيعة المائتة. والمرأة كانت شغوفة للحصول على هذه العطية. فقال المسيح: «ادعى زوجك»، مظهراً أنه هو أيضاً (الزوج) يجب أن يشارك فى هذه العطية. ولكن لكون المرأة متعطشة للعطية، لم تلتفت، نتيجة للخجل والخزى فى مثل هذه الظروف، فقالت على التو: «ليس لى زوج» مفترضة أنها كانت تتحدث مع إنسان عادى. فلما سمع المسيح هذه الاجابة، هنا وجه تأنيبه لها فى الوقت المناسب، ذاكراً لها بدقة أمرين،

فذكر لها أزواجها السابقين، وكذلك أنبها على شيء آخر كانت تريد أن تخفيه، وهو أن الذى معها الآن ليس زوجها.

فماذا فعلت المرأة؟ إنها لم تتضايق، ولم تهرب بعيداً، ولم تعتبر كلامه إهانة لها، بل بالأحرى أعجبت به، وأكملت قائلة: «يا سيد أرى أنك نبى». أنظروا إلى حذرها، فهى لم تسرع اليه مباشرة، ولكنها لا زالت تقدره وتظهر انبهاراً به، لأن كلمة (أرى) تعنى (أنت تظهر لى أنك نبى). ثم عندما شكّت فى ذلك، لم تسأله عن شيء يختص بهذه الحياة، أو الصحة الجسدية، أو أملاك أو رفاهية، بل سألته مباشرة عن أشياء تختص بالعقائد. فماذا قالت؟

«آباؤنا سجدوا فى هذا الجبل وأنتم تقولون إن فى أورشليم الموضع الذى ينبغى أن يُسْجد فيه.» (٢٠)

فلتروا كيف أصبحت أفكارها سامية، هى التى كانت قلقة منذ قليل على كونها ينبغى ألا تواجه مشكلة العطش بعد. الآن تتكلم عن العقائد. فماذا فعل السيد المسيح؟ لم يجب مباشرة على السؤال. (فالإجابة بالكلمات العادية لم تكن تهمه، لأن الحاجة ليست لها)، بل قاد المرأة إلى السمو الأعظم، ولم يتناقش معها فى هذه الأمور، الا بعد أن اعترفت بأنه نبى، حتى يمكنها أن تسمع بعد ذلك أقواله بإيمان وفير. لأنها، وقد انساقت إلى هذا الايمان، لا يمكنها بعد ذلك أن تشك فيما يقوله السيد المسيح.

«قال لها يسوع يا امرأة صدقينى أنه تأتى ساعة لا فى

هذا الجبل ولا فى أورشليم تسجدون للآب. أنتم تسجدون لما لستم تعلمون. أما نحن فنسجد لما نعلم. لأن الخلاص هو من اليهود.» (٢١ - ٢٢)

يا أحبائى فى كل مكان، نحن نحتاج إلى الإيمان. فالإيمان هو أبو الفضائل والبركات، ودواء الخلاص، وبدونه من المستحيل أن نقتنى أياً من التعاليم العظيمة. وبدون ذلك نكون كأناس يحاولون عبور بحر كبير بدون سفينة، فيلجأون إلى السباحة بكلتا اليدين والقدمين، ولكن عندما يتقدمون إلى الأمام، سرعان ما تغالبهم الأمواج، مثلهم كمثل من يستعملون فكرهم ومنطقهم الخاص قبل أن يتعلموا شيئاً، فتنكسر بهم السفينة، كما قال بولس الرسول: «ولك إيمان وضمير صالح الذى إذ رفضه قوم انكسرت بهم السفينة من جهة الإيمان أيضاً.» (١ تى ١ : ١٩). فلكى لا يكون هذا حالنا، دعونا نمسك بالمرساة المقدسة التى اجتذب بها السيد المسيح المرأة السامرية. لأنه عندما قالت: «كيف تقولون إن فى أورشليم الموضع الذى ينبغى أن يُسجد فيه» ؟ أجابها السيد المسيح قائلاً: «يا امرأة صدقينى أنه تأتى ساعة لا فى هذا الجبل ولا فى أورشليم تسجدون للآب». إنها عقيدة غاية فى العظمة تلك التى كشفها السيد المسيح للمرأة، ولم يكشفها من قبل لنيقوديموس ولا لنثنائيل. لقد كانت تواقة لكى تثبت مزاياها الشخصية الأكثر امتيازاً، واستحقاقها لكرامة أفضل من اليهود. وهذا هو ما قالته بمكر أنها عرفته من الآباء. ولكن يسوع لم يهتم بهذه القضية، لأنه فى حينه، كان يمكن أن يتشتت الموضوع، إذا تحدث معها عن سبب سجود الآباء فى الجبل،

ولماذا يسجد اليهود فى أورشليم. لذلك، ففى هذه النقطة بالذات كان صامتاً، وأبعد عن المكانين أولوية الكرامة، وابتدأ يسمو بروحها، مظهراً لها أن لا اليهود ولا السامريين يمتلكون أعظم من العطية التى سوف يمنحها إياها. ثم بدأ فى إظهار الفرق، وأعلن أن اليهود أكثر كرامة، ليس بتفضيل مكان على مكان، ولكن بسبب نيتهم. ولذا فهم يتميزون عن السامريين فى قوله: «أنتم تسجدون لما لستم تعلمون. أما نحن فنسجد لما نعلم.» كيف لم يعلم السامريون ما كانوا يسجدون له؟ لقد كانوا يعتقدون أن عبادة الله محدودة بمكان، فليس أقل من أن يخدموه. ولكن فكرهم عنه لم يكن ليرتفع عما لأصنامهم. وبهذا ظلوا يخدمونه هو وشياطينهم (أصنامهم)، وبذلك كانوا يربطون بين أشياء لا يجب الربط بينها. أما اليهود، فعلى العكس، كان أغلبهم لا يعتقدون فى هذا، بل يعرفون أن الله هو رب العالم كله. ولذلك قال يسوع: «أنتم تسجدون لما لستم تعلمون. أما نحن فنسجد لما نعلم.» ولا تتعجبوا من أنه عَدَّ نفسه من ضمن اليهود. فذلك لأنه كان يخاطب فكر المرأة عنه على أنه نبى يهودى. ولذلك قال: «أما نحن فنسجد...» على اعتبار أنه هو الذى يسجد، وهذا أمر واضح للجميع. لأن السجود خاص بالخليقة، أما المسجود له فهو رب الخليقة. ولكنه لبعض الوقت، كان يتكلم كيهودى. وتعبير «نحن» هنا يعنى «نحن اليهود». فبعد أن مجد ما كان يخص اليهود، جعل نفسه جديراً بالتصديق، وحث المرأة لكى تعطى اهتماماً عظيماً لكلماته، بأن جعل حديثه أكيداً وفوق الشبهات، مظهراً لها أنه لا يمجدهم بسبب انتسابهم إلى قبيلته. لأنه من الواضح أن

من قال هذه التصريحات عن المكان الذى كان يتفاخر به اليهود، ويظنون أنهم يتميزون عن الجميع، وهو أيضاً الذى أبعد كل ادعاءاتهم وأبطلها، لن يتكلم بعد ذلك لكى يحصل على معروف أو نفع من أحد، بل هو يتكلم بالحق وبالقدرة النبوية. فلذلك، عندما أراد أن يبعدها عن مثل هذه الأفكار، قائلاً لها: «يا امرأة صدقينى»، وما تلى ذلك، ثم أضاف: «لأن الخلاص هو من اليهود»، فإن ما قاله، إما أنه كان يعنى أن اليهود كانوا مصدراً لكل البركات للعالم أجمع (لأن بدء معرفة الله، ونبذ الأوثان، كان منهم، أما السجود بالنسبة لكم، فبرغم أنكم لا تؤدونه بالطريقة الصحيحة، إلا أنكم أخذتم أصله من اليهود)، أو ربما كان يتكلم عن مجيئه هو نفسه.

وبالأحرى، لا ينبغى أن يخطىء أحد، بسبب دعوة كلاً الأمرين «خلاصاً»: الذى قال عنه السيد المسيح إنه: «من اليهود»، والذى أشار إليه بولس الرسول عندما قال: «......... ومنهم المسيح حسب الجسد الكائن على الكل إلهاً مباركاً إلى الأبد آمين.» (رو٩ :٥).

هل ترون كيف يمدح السيد المسيح العهد القديم، ويظهر أنه أصل البركات، وأنه له المجد لم ينقض الناموس، منذ أن أظهر أن أصل كل الأشياء الطيبة قد أتى من اليهود؟

«ولكن تأتى ساعة وهى الآن حين الساجدون الحقيقيون يسجدون للآب بالروح والحق...». (٢٣)

قال لها السيد المسيح ما معناه: «يا امرأة، نحن نتفوق عليكم فى

طريقة سجودنا، ولكن هذا سيكون له نهاية فى وقت ما. وليس بالنسبة للمكان فقط، وإنما طريقة عبادة الله سوف تتغير. وهذا التغير قريب جداً من أبوابك، (لأن الساعة تأتى، وهى الآن)».

بما أن الأنبياء يتنبأون بالأحداث قبل حدوثها بوقت طويل، وليظهر السيد المسيح أن هذا ليس هو الحال هنا، قال لها: «وهى الآن»، أى «لا تعتقدى أن هذا نوع من النبوءة، تتحقق بعد وقت طويل، ولكن هذه النبوءة محققة فعلاً الآن، وهى بين يديك وعلى أعتاب أبوابك»

«.... حين الساجدون الحقيقيون يسجدون للآب بالروح والحق.....».

فى قوله «الحقيقيون، فهو يستبعد اليهود مثلهم مثل السامريين، لأن اليهود رغم كونهم أفضل من السامريين، إلا أنهم ما زالوا أقل بكثير من هؤلاء الذين سوف يأتون إلى السجود بالحق. إنه يتكلم عن الكنيسة. فهى السجود «الحقيقى» الذى هو لائق بالله.

«... لأن الآب طالب مثل هؤلاء الساجدين له.»

إذا كان الرب، فى الأزمنة الماضية، قد طلب «مثل هؤلاء»، فقد سمح أيضا «لأولئك الآخرين» ليسجدوا له بطريقتهم، ليس لكونه راض عن هذه الطريقة، ولكن حتى يمكنه أن يأتى بهم أيضاً إلى العبادة الصحيحة.

إذاً، مَنْ هم هؤلاء «الساجدون الحقيقيون» ؟ إنهم الذين لا يقصرون عبادتهم على المكان فقط، وإنما يعبدون الرب بالروح، مثلما قال بولس

الرسول: «.... الذى أعبده بروحى فى إنجيل ابنه...» (رو ١ : ٩). وقال أيضاً: «فأطلب إليكم أيها الإخوة برأفة الله أن تقدموا أجسادكم ذبيحة حية مقدسة مرضية عند الله عبادتكم العقلية.» (رو ١٢ : ١). ولكنه عندما قال:

«الله روح...» (٢٤)

..... فإنه لم يوضح شيئاً آخر سوى طبيعته اللاجسدية. وعبادة الله غير الجسدى وخدمته لها احتياجات من نفس الخاصية (العبادة الروحية). ويجب أن تقدم من الذى هو غير جسدى فينا: البصيرة، الروح، ونقاء العقل. ولذلك قال:

«.... والذين يسجدون له بالروح والحق ينبغى أن يسجدوا.»

... لأن كلاً من اليهود والسامريين كانوا مهملين لما هو للروح، واهتموا بالأكثر جداً بما هو للجسد، بتنظيفه بطرق مختلفة. فقال لهم ليس بتنقية الجسد، وإنما بتنقية ذلك الذى هو غير جسدى فينا، ألا وهو العقل، نخدم الرب غير الجسدى. فلا تذبحوا إذاً عجولاً وخرافاً، بل كرسوا نفوسكم للرب. واجعلوا نفوسكم محرقة وذبيحة حية لتقدموها لله. يجب عليكم أن تسجدوا «بالحق»، لأن الأمور الأولى كانت متنوعة: ختان الجسد، محرقات، وذبائح.... الخ، أما الآن فهى غير موجودة، ولكن كل شىء هو حق. فالإنسان الآن يجب عليه لا أن يختن جسده، بل يختن أفكاره الشريرة، وأن يصلب نفسه، ويبعد عنه ويقضى على شهواته غير المرضية.

لقد ترنحت المرأة من كلمات الرب يسوع، وكاد أن يغشى عليها بسبب سمو ما قاله. وفى اضطرابها، لنسمع ما قالته....

«قالت له المرأة أنا أعلم أن مسيا الذى يقال له المسيح يأتى. فمتى جاء ذاك يخبرنا بكل شىء. قال لها يسوع أنا الذى أكلمك هو.» (٢٥ - ٢٦)

متى توقع السامريون مجىء المسيا، وهم الذين آمنوا بموسى فقط؟ فمن كتب موسى نفسها، وحتى منذ البدء، أظهر الرب الابن. «وقال الله نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا.» (تك ١ : ٢٦). هذا هو ما قيل عن الابن. والابن هو الذى كلم إبراهيم فى الخيمة. (تك ١٨). وموسى نفسه قال: «يقيم لك الرب إلهك نبياً من وسطك من إخوتك مثلى. له تسمعون.» (تث ١٨ : ١٥). والظروف المصاحبة أيضاً: الأفعى، وعصا موسى، واسحق والخروف، وأشياء أخرى كثيرة كانت ترمز لمجيئه.

وربما يتساءل أحدكم: «لماذا لم يرشد الرب المرأة بمثل هذه الأشياء والطرق؟ ولماذا أعطى الحية كمثال لنيقوديموس، وذكر النبوءة لنثنائيل، أما المرأة فلم يقل لها شيئاً من هذا القبيل؟ لأى الأسباب، ولماذا؟». لأنهم كانوا رجالاً عالمين بمثل هذه الأمور. أما هى فهى امراة جاهلة وفقيرة غير عارفة بالكتب المقدسة. لذلك لم يتحدث إليها منها، وإنما اجتذبها بالحديث عن «الماء» وبالنبوءة، وأتى بها إلى التحدث عن المسيا. وعندئذ كشف عن ذاته. وهو الشىء الذى لو كان قد حدث من البداية، دون أن تسأله، ربما بدا وكأنه عبث. ولكنه جذبها بالحديث قليلاً قليلاً، حتى أتى بها إلى أن تذكره (المسيا)، وعندئذ، وفى الوقت

المناسب، كشف لها عن ذاته.

إنه لم يعط إجابة واضحة لليهود الذين سألوه: «.... إلى متى تعلق أنفسنا. إن كنت أنت المسيح فقل لنا جهراً.» (يو ١٠ : ٢٤)، أما هذه المرأة فقال لها بوضوح إنه هو. لأن المرأة كانت تفوق اليهود فى صفاء العقل والتفكير. واليهود لم يسألوا ليتعلموا، وإنما ليسخروا منه. فلو أرادوا أن يتعلموا لكانت تعاليم كلامهو فى الكتب المقدسة، وفى معجزاته التى صنعها كافية. أما المرأة، فعلى عكس ذلك، كانت تقول ما تقوله عن احتكام نزيه مجرد وعقل بسيط. وهذا واضح مما فعلته بعد ذلك. فقد سمعت وآمنت واصطادت (أو جذبت) الآخرين أيضاً. وفى كل مناسبة، نلاحظ كيف كان اهتمام المرأة وإيمانها.

«وعند ذلك جاء تلاميذه وكانوا يتعجبون أنه يتكلم مع امرأة. ولكن لم يقل أحد ماذا تطلب أو لماذا تتكلم معها.» (٢٧)

ما الذى تعجب منه التلاميذ؟ تعجبوا من عدم تفاخره واتضاعه الزائد الذى ظهر به فى هذه الحالة. لقد تحمل بتواضع قلبه أن يتكلم مع امرأة فقيرة وسامرية. وفى دهشتهم لم يسألوا عن السبب. فقد تعلموا جيداً كيف يحفظون مكانتهم كتلاميذ. فكم كانوا يخافونه ويحترمونه. ورغم عدم معرفتهم الجيدة بعد بمن يكون، فهم يعتقدون أنه شخص عجيب، يكنون له احتراماً كبيراً. ولكن، فى أحيان كثيرة، نراهم يتصرفون بثقة، مثلما فعلوا حينما تقدموا ليسألوه: «... من هو أعظم فى ملكوت السماوات.» (مت ١٨ : ١)، وعندما سأله ابنا زبدى أن يجلس واحد

عن يمينه وآخر عن يساره فى ملكوت السماوات. فلماذا لم يسأله أحد من تلاميذه هنا؟ لأن كل الأحداث السابقة كانت تخصهم هم أنفسهم. إذاً كانت هناك حاجة لأن يسألوه. أما ما يحدث هنا، فليس بالأهمية الكبيرة بالنسبة لهم. وهذا هو ما فعله يوحنا، بعد وقت طويل، عندما اكتسب ثقة كبيرة، وكان جريئاً فى حبه للسيد المسيح، حتى أنه قال عن نفسه: «التلميذ الذى كان يسوع يحبه». فما الذى يمكن أن يعادل مثل هذه البركة؟

«فتركت المرأة جرتها ومضت إلى المدينة وقالت للناس هلموا انظروا إنساناً قال لى كل ما فعلت. ألعل هذا هو المسيح.» (٢٨- ٢٩)

إننا نحتاج إلى توقد وحماسٍ شديدين، لأننا بدونهما من المستحيل أن نحصل على البركات التى وعدنا بها. ولكى يظهر ذلك، قال الرب يسوع ذات مرة: «ومن لا يأخذ صليبه ويتبعنى فلا يستحقنى.» (مت ١٠ : ٣٨). وفى قول آخر: «جئت لألقى ناراً على الأرض. فماذا أريد لو اضطرمت.» (لو ١٢ : ٤٩).

بهذين القولين، يريد السيد المسيح أن يصف لنا التلميذ المملوء بالحرارة والنار، والمستعد لمواجهة كل الأخطار. ومثل هذا التلميذ، كانت المرأة السامرية. كم كانت متوقدة بكلماته، حتى أنها تركت جرتها... تركت الغرض الأساسى الذى جاءت من أجله، واندفعت نحو المدينة، وجذبت جميع الناس للمسيح، قائلة: «... هلموا انظروا إنساناً قال لى كل ما فعلت....».

فلنلاحظ هنا حماسها وحكمتها. إنها أتت لتستقى ماءً. وعندما استنارت بالماء الحقيقى، ألقت الماء العادى جانباً. إنها تعلمنا بهذا التصرف البسيط، أن نصرف النظر عن الأمور الدنيوية، ولا نعيرها اهتماماً كبيراً، حينما نستمع إلى الأمور الروحية.

إن ما فعله الرسل، فعلته المرأة أيضاً بقدر استطاعتها. هم حينما دعاهم المسيح، تركوا شباكهم، وهى بدورها تركت جرتها دون أن يطلب منها أحد، وطارت بأجنحة البهجة، مؤدية عمل الإنجيليين، ولم تدع واحداً أو اثنين كما فعل اندراوس وفيلبس، بل أيقظت مدينة بشعبها كله، وأحضرتهم إلى المسيح.

ولنلاحظ أيضاً كيف تحدثت بحصافة وتعقل. فلم تقل هلموا انظروا المسيح، ولكن بنفس التواضع الذى جذبها به السيد المسيح، فعلت هى أيضاً، قائلة: «.... هلموا انظروا إنساناً قال لى كل ما فعلت..» . لم تخجل من قولها أنه أخبرها بكل ما فعلت. وقد كان يمكنها أن تقول: «هلموا انظروا إنساناً يتنبأ» . ولكن عندما تشتعل النفس بالنار المقدسة، فلا تلتفت لشىء أرضى، ولا تخجل، بل تنتمى لشىء واحد فقط هو النار التى تملؤها.

«.... ألعل هذا هو المسيح.»

فلنلاحظ، مرة أخرى، الحكمة العظيمة التى للمرأة. فهى لم تقل الحقيقة لهم بوضوح، ولا التزمت الصمت، ولكنها كانت ترغب فى أن تجذبهم للمسيح، ليس بتأكيدها هى، وإنما ترغب فى أن يشتركوا معها فى هذا الرأى، بعد أن يستمعوا إليه. وهذا جعل كلماتها أكثر قبولاً

لديهم.

ولكن المسيح لم يقل لها كل ما فعلته فى حياتها. ولكن مما قاله، اقتنعت المرأة أنه يعرف كل شيء فى حياتها.

لم تقل للناس: «هلموا آمنوا»، بل قالت: «هلموا انظروا...». إنها استعملت تعبيراً أكثر تأثيراً عليهم، فجذبهم إلى يسوع. ولعلكم تدركون حكمة المرأة. لقد أدركت أنهم بمجرد أن يذوقوا من «البئر» التى للمسيح، فسوف يتأثرون بنفس الطريقة التى تأثرت بها.

إن أى إنسان جسدانى كان سيخفى ويكتم أمر توبيخ المسيح له. ولكن هذه المرأة استعرضت حياتها أمام كل الناس، لتأسرهم وتجذبهم نحوه.

«فخرجوا من المدينة وأتوا إليه» (٣٠)
«وفى أثناء ذلك سأله تلاميذه قائلين يا معلم كل.» (٣١)

لما رأوه متعباً من الرحلة، ومن حرارة الجو الخانقة، كان طلبهم له بأن يأكل طعاماً، ليس على سبيل الاستعجال، ولكن من شعور محبة لمعلمهم. فماذا قال المسيح؟

«فقال لهم أنا لى طعام لآكل لستم تعرفونه أنتم.
فقال التلاميذ بعضهم لبعض ألعل أحداً أتاه بشيء ليأكل.» (٣٢ - ٣٣)

لماذا نتعجب من المرأة، لأنها عندما سمعت عن «الماء»، تخيلته مجرد

ماء عادى، بينما التلاميذ هنا أيضاً نجدهم فى نفس الوضع تماماً، فهم لم يفترضوا شيئاً روحانياً، بل ارتبكوا وتحيروا، وفى حيرتهم تحدثوا بعضهم لبعض، مظهرين تواضعهم المعهود نحو سيدهم ومعلمهم. فلم يجرؤوا أن يطرحوا عليه سؤالاً واحداً. وهذا هو ما حدث فى مواقف أخرى أيضاً، حيث أرادوا أن يسألوه ولم يفعلوا. فماذا قال المسيح؟

«قال لهم يسوع طعامي أن أعمل مشيئة الذى أرسلنى وأتمم عمله.» (٣٤)

إنه يدعو خلاص الإنسان «طعاماً»، مظهراً اشتياقه ليتم خلاصنا. فكما نحتاج نحن إلى الطعام، يشتاق هو إلى خلاصنا.

فلنر كيف يكشف هذا الأمر لتلاميذه فى كل مكان. لا يكشف كل شيء مرة واحدة، بل فى البداية، يجذب يسوع مستمعيه إلى الحيرة والارتباك، حتى يبدأوا فى البحث عن معنى ما قيل لهم. فإذا بدأ ما يبحثون عنه فى الظهور، بعد الحيرة والارتباك، يستقبلونه باستعداد عظيم وانتباه أكثر للاستماع. فيسوع لم يقل لهم مباشرة: «إن طعامى أن أعمل مشيئة الذى أرسلنى وأتمم عمله.»، بل بدأ كلامه بقوله: «.... أنا لى طعام لآكل لستم تعرفونه أنتم....». فهو يرغب فى أن يجعل مستمعيه متنبهين أكثر عن طريق الحيرة والتشكك. وبمثل هذه الأقوال الغامضة، كان يعود تلاميذه على الاستماع لكلماته.

ولكن ما هى مشيئة أبيه؟ لقد بدأ يتكلم ويشرح ذلك.

«أما تقولون إنه يكون أربعة أشهر ثم يأتى الحصاد. ها

أنا أقول لكم ارفعوا أعينكم وانظروا الحقول إنها قد ابيضت للحصاد.» (٣٥)

بكلمات مألوفة قادهم الرب يسوع، مرة أخرى، لمعرفة أمور أعظم. فعندما تحدث عن «الطعام»، لم يوضح شيئاً سوى عمل الخلاص لكل من يأتي إليه. ومرة أخرى «الحقل» و«الحصاد» يعنيان نفس الشيء بعينه. إنها ربوات الأرواح المستعدة لاستقبال الموعظة. أما «أعينكم» التي تحدث عنها، فهي أعين كل من العقل والجسد أيضاً، (لأنهم كانوا يرون ساعتها جموع السامريين يقتربون). وقال: «انظروا الحقول إنها قد ابيضت للحصاد»، ليعبر عن استعدادهم. فكما أن سنابل الأذرة عندما تبيض، تكون جاهزة للحصاد، هكذا أيضاً هؤلاء، مستعدون وجاهزون للخلاص.

ولماذا لم يستبدل الرب يسوع كلمتى «الحقول» و«الحصاد» بكلام واضح وصريح قائلاً «إن الناس قد أتوا ليؤمنوا، وكانوا مستعدين لاستقبال «الكلمة» التى سبق وأعلموا عنها من الأنبياء، وهم الآن يجنون الثمر؟ ماذا تعنى هذه الصور التى استخدمها الرب يسوع؟ إنه لم يفعل ذلك هنا فقط، بل فى كل الاناجيل، والأنبياء أيضاً استعملوا نفس الأسلوب، قائلين أموراً كثيرة بطريقة تشبيهية. فما السبب فى ذلك ؟ لأن نعمة الروح القدس لم ترتب ذلك بلا سبب. فلماذا؟ هناك سببان: الأول هو لكى يكون الخطاب بأكثر حيوية، والكلام واضحاً أمام أعيننا. لأن العقل عندما يتلقى صورة مألوفة للأمور المطروحة أمامه، فإنه يتنبه أكثر، ويظل محتفظاً بها كما صورت له، ويكون مشغولاً بها بدرجة أكبر. هذا

سبب. أما السبب الآخر فهو أن يكون القول ملطفاً، وحفظه بالذاكرة يدوم أكثر. لأن الجزم والتوكيد لا يلطف ولا يجذب المستمع العادى، كما يكون الحال بالرواية للأشياء، وعن طريق التصوير أو التمثيل بتجربة. وهذا ما نراه بوضوح فى الأمثال.

«والحاصد يأخذ أجرة ويجمع ثمراً للحياة الأبدية لكى يفرح الزارع والحاصد معاً.» (٣٦)

إن ثمار الحصاد الأرضى لا تجمع للحياة الأبدية، ولكنها تجمع للوقت الحاضر. أما الثمر الروحى فليس له عمر ولا يموت أبداً.

أترون الآن أن التعبيرات حسية، أما الأفكار فهى روحانية، وبنفس الكلمات عينها، قسم الأشياء إلى جسدية وروحانية؟ لأنه عند حديثه مع المرأة عن الماء، جعل تلك الخاصية النادرة التى «للماء الحى» هى أن: «من يشرب من الماء الذى أعطيه أنا فلن يعطش إلى الأبد.» وهنا أيضاً عندما يقول إن: «الحاصد... يجمع ثمراً للحياة الأبدية لكى يفرح الزارع والحاصد معاً.»

من هو الزارع؟ ومن هو الحاصد؟ إن الأنبياء زرعوا ولكنهم لم يحصدوا، ولكن الرسل هم الذين حصدوا. إن الأنبياء زرعوا فقط، ولكن ليس معنى ذلك أنهم حرموا من الفرح، ولم يكافأوا عن تعبهم. بل ها هم يفرحون مع الرسل رغم كونهم لم يحصدوا معهم. الحصاد ليس متعباً كالزرع. وحسب قول يسوع لقد حفظتكم لهذا الحصاد، حيث التعب أقل والفرح أكثر. حفظتكم ليس للزرع، لأن فيه الكثير من الجهد والمشقه، بل للحصاد حيث العائد كبير والتعب قليل.

إن الرب يسوع يريد أن يبرهن أن «مشيئة الأنبياء أن يأتى الناس كلهم إلَّى» كان الناموس متعلقاً بهذا أيضاً. ولذلك فالأنبياء زرعوا، لعلهم يأتون بالثمار. وأرسل المسيح تلاميذه ليوضح الترابط الوثيق بين العهدين القديم والجديد.

«لأنه فى هذا يصدق القول إن واحداً يزرع وآخر يحصد.» (٣٧)

هذه الكلمات يستعملها الكثيرون عندما يقوم فريق بعمل متعب، وفريق آخر يحصد الثمار. وقال يسوع هنا: «إن المثل صدق مع الأنبياء الذين زرعوا، وأنتم تجنون ثمر زرعهم.» ولم يقل: «مكافأة» بل قال: «ثمراً». وحتى لا يعتقد أحد أن الأنبياء حرموا من المكافأة، فهو يؤكد شيئاً غريباً ومتناقضاً، لا يحدث فى الأمور المادية الملموسة، بل فى الأمور الروحانية فقط. ففى الأمور المادية، إن حدث أن واحداً زرع والآخر حصد، فلا يفرح كلاهما معاً، لأن الذى زرع يكون حزيناً لأنه تعب وكدَّ للآخرين، أما الذى حصد، فهو وحده الذى يفرح. أما هنا فالأمر مختلف. فالذين لم يحصدوا ما زرعوه، يفرحون أيضاً مع الذين يحصدون. ومن هنا يتضح أنهم يتشاركون فى المكافأة.

«أنا أرسلتكم لتحصدوا ما لم تتعبوا فيه. آخرون تعبوا وأنتم قد دخلتم على تعبهم.» (٣٨)

بهذا فإن يسوع يشجعهم بالأكثر. فعندما بدا لهم شيئا صعباً جداً أن يذهبوا إلى العالم أجمع ليكرزوا بالإنجيل، فقد أظهر لهم أن هذا شىء سهل للغاية، وأن العمل الصعب هو الآخر، هو العمل الذى يتطلب

وضع البذور ثم إدخال النفس غير المهيأة إلى معرفة الله. ولكن أين نطق بهذه الأقوال؟ عندما أرسلهم ليبشروا بالانجيل، حتى لا يقعوا فى ارتباك وحيرة، لكونهم مرسلين لمهمة صعبة وقال: «الأنبياء كانت لهم المهمة الأصعب. والحقيقة قد شهدت لكلمتى حتى أنكم أتيتم إلى ما هو سهل. ففى وقت الحصاد تحصد الثمار بسهولة، وفى وقت واحد تمتلىء الأرض بالحزم، التى لا تنتظر تقلبات الفصول من شتاء وربيع ومطر. بل الحصاد الآن. إن الحقائق تعلن بصوت عال.»

وبينما هو يتكلم بهذا، جاء السامريون، والثمار تجمعت كلها معاً مرة واحدة. وبهذه المناسبة قال: «ارفعوا أعينكم وانظروا الحقول إنها قد ابيضت للحصاد.» هكذا تكلم وكانت الحقيقة واضحة. وبدت الكلمات حقيقية، منطبقة على ما يحدث. فالقديس يوحنا قال:

«فآمن به من تلك المدينة كثيرون من السامريين بسبب كلام المرأة التى كانت تشهد أنه قال لى كل ما فعلت.» (٣٩)

بمجرد أنهم سمعوا المرأة آمنوا. لأنهم أدركوا أنها لا لمصلحة ولا لمنفعة أحبت شخصاً قد وبخها على خطاياها. ولا لتكافىء شخصاً قد استعرض قضية حياتها.

فلنقلد هذه المرأة. وفى حالة خطايانا، لا نخجل من الناس. بل بالأحرى نهاب، كما يليق، الله الذى يعرف ماذا نفعل، وسوف يعاقب بعد ذلك من لم يتب الآن. إننا فى الوقت الحاضر نفعل العكس، لأننا لا نخاف الله الذى يجازينا، بل نخجل من هؤلاء الذين لا يمكن أن

يؤذونا، ونرتعد خجلاً مما قد يأتى منهم.

«فلما جاء إليه السامريون سألوه أن يمكث عندهم. فمكث هناك يومين. فآمن به أكثر جداً بسبب كلامه. وقالوا للمرأة إننا لسنا بعد بسبب كلامك نؤمن. لأننا نحن قد سمعنا ونعلم أن هذا هو بالحقيقة المسيح مخلص العالم.» (٤٠ - ٤٢)

لا شيء أسوأ من الحسد والحقد. ولاشيء مسيء أكثر من الصلف. إنه يميل لإفساد عشرات الآلاف من الأشياء الطيبة. لذا، فاليهود الذين تفوقوا على السامريين فى المعرفة، والذين تربوا مع الأنبياء، أظهروا أنفسهم، نتيجة لهذه الصفات الكريهة، أقل من السامريين. لأن السامريين آمنوا بشهادة المرأة، وبدون أن يروا أى علامة أو معجزة، وخرجوا سائلين السيد المسيح أن يمكث معهم. أما اليهود الذين عاينوا معجزاته، فلم يبقوه بينهم، وليس هذا فقط، وإنما أخرجوه خارجاً، واستخدموا كافة السبل ليبعدوه عن أرضهم، رغم أن مجيئه أساساً كان لأجلهم. اليهود طردوه، ولكن السامريين سألوه أن يمكث معهم، لذلك قبلهم، ورضى أن يمكث معهم يومين، لقد كانوا يريدون أن يبقوه معهم بصفة مستمرة، ولكنه رفض، وبقى معهم يومين فقط، فى خلالهما، آمن به جمع أكثر جداً. ولم يكن هناك احتمال كبير لأن يؤمن مثل هؤلاء، حيث أنهم لم يروا العجائب والمعجزات، ويحملون مشاعر عدائية لليهود. ولكن بقدر ما كان صدقهم فى الحكم على كلماته، لم يقف ذلك عائقاً لهم، بل كان لهم الانطباع والاعتقاد

الذى تغلب على كل المعوقات، وتسابقوا بعضهم مع بعض، ليوقروه بالأكثر. لأن الإنجيلى قال عنهم: «.. وقالوا للمرأة إننا لسنا بعد بسبب كلامك نؤمن. لأننا نحن قد سمعنا ونعلم أن هذا هو بالحقيقة المسيح مخلص العالم». كان يمكن لهؤلاء السامريين أن يدينوا اليهود لأسباب وجيهة، لإيمانهم به واستقبالهم له. اليهود الذين لأجلهم وضع الرب خطة الفداء، كانوا باستمرار يرجمونه. ولكن هؤلاء السامريين، الذين لم يكن ينوى حتى المجىء اليهم جذبوه اليهم. وحتى بالمعجزات لم ينصلح حال اليهود، أما هؤلاء، فبدون معجزات أظهروا إيماناً عظيماً، موقرين إياه ومعطين كل المجد له. فى حين أن اليهود لم يكفوا عن طلب المعجزات والآيات لاختباره.

هناك احتياج دائم فى كل مكان للنفس الأمينة. إذا أمسكت الحقيقة بمثل هذه النفس، فهى تقودها بسهولة وإذا لم تقد الحقيقة مثل هذه النفس، فليس العيب فى ضعف الحقيقة نفسها، بل العيب فى النفس التى تنقصها سلامة النية والأخلاص.

فلنسمع ما قاله السامريون: «نحن نعلم أن هذا هو بالحقيقة المسيح مخلص العالم.» ألعلكم ترون كيف أدركوا فى الحال أنه سوف يخلص العالم كله. أدركوا أنه أتى لخلاصنا جميعاً. أدركوا أنه لم يقصر اهتمامه على اليهود فقط، بل ليزرع كلمته فى كل مكان. إن اليهود لم يفعلوا ذلك، بل كانوا، وهم يؤكدون برهم الذاتى، غير خاضعين لبر الله. أما السامريون فقد اعترفوا أن الكل يستحق العقاب، معلنين مع الرسول: «إذ الجميع أخطأوا وأعوزهم مجد الله. متبررين مجاناً بنعمته بالفداء الذى

بيسوع المسيح.» (رو ٣ : ٢٣، ٢٤). فبقولهم إنه هو مخلص العالم، أظهروا أنه عالم ضائع يحتاج إلى خلاص، والرب يسوع ليس مخلصاً فقط، بل هو الأقوى والأقدر، لأن كثيرين أتوا «للخلاص»، (كل الأنبياء والملائكة)، ولكن المسيح هو المخَلص الحقيقى، الذى قدم بالحقيقة خلاصاً دائماً، وليس لفترة مؤقتة. هذا الخلاص يأتى بإيمان نقى. والسامريون، فى كلتا الحالتين، جديرون بالإعجاب، لأنهم آمنوا، وكان إيمانهم بدون معجزة. وهؤلاء هم الذين طوبهم المسيح قائلاً: «طوبى للذين آمنوا ولم يروا» (يو ٢٠ : ٢٩)، وأيضاً لأن إيمانهم كان بإخلاص. فرغم سماعهم المرأة تقول بشك: «ألعل هذا هو المسيح»، فلم يقولوا: «نحن أيضاً نشك»، أو: «نعتقد»، ولكنهم قالوا: «نحن نعلم»، ليس فقط: «نحن نعلم»، بل: «نحن نعلم أن هذا هو بالحقيقة المسيح مخلص العالم.»

لقد عرفوا المسيح، ليس كواحد من المرسلين برسالة معينة، بل على أنه «المخلص» حقيقة. فمن هم هؤلاء الذين رآهم السامريون وقد خلصوا؟ إنهم فقط سمعوا كلامه، ويتكلمون كما لو كانوا قد عاينوا عجائب عظيمة وكثيرة.

ولماذا لم يخبرنا الإنجيليون بهذا الكلام الذى سمعوه، وحديث الرب يسوع الرائع لهم، حتى نتعلم أنهم مروا بأحداث مهمة كثيرة؟ ولكنهم أخبرونا عن الحدث عموماً وككل، على الرغم من أن هذه الكلمات، التى للرب يسوع، قد أقنعت مدينة وشعباً بأكمله.

